الدرس الثالث والعشرون
تاريخ التشريع الإسلامي

سنتحدث عن المحنة التي عاشها الإمام أحمد فهو عاش في عصر المأمون ثم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل وقد كان للمعتزلة صولة في هذه الفترة لا سيما في عصر المأمون والمعتصم فقد استطاع المعتزلة أن يتسللوا إلى قصر الخلافة ويسيطروا بأفكارهم على الخليفة المأمون أولاً ثم المعتصم ولعل النافذة التي سهلت هذا الأمر للمعتزلة أن المأمون كان من تلاميذ أبو هزيل العلام وهو من رؤوس الاعتزال وواحد ممن درس الفلسفة اليونانية وافتتن بها والمأمون درس على يده لذلك كان بين أفكار المعتزلة والخليفة صلة وقد استغل هذه الصلة أحمد بن دوؤاب المعروف بالتعصب للمعتزلة واستطاع أن يحتك بالمأمون ويدخل قلبه ويمتلك إعجابه فاتخذه المأمون وزيراً خاصاً بل مستشاراً له وبهذا وقع في شباك المعتزلة وتحت تأثير أفكارهم وفي هذا العصر كان يعيش الإمام أحمد وكان بعيداً عن أفكارهم وعلم الكلام.

وأهم أفكار المعتزلة الجانحة قولهم بأن القرآن مخلوق أي حادث بعد أن لم يكن موجود (معدوم ثم وجد) بإيجاد الله عز وجل له وبخلقه إياه.

ولكن أهل السنة والجماعة يقولون ما قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه أنه كلام الله وكلام الله صفة من صفاته وصفات الله عز وجل موجودة مع ذاته أي موجودة قدم ذاته وهم لديهم أيضاً جملة أفكار منحرفة ولها أسباب وفي ذهنهم حجج ينافحون عنها.

وفي عام 212 هـ اقتنع المأمون بهذه الفكرة ولكنه ما كان ليحمل الناس على اقتناعها والذي أقنعه وزيره وفي عام 208 هـ أرسل المأمون كتاب إلى نائبه في بغداد وهو إسحاق بن إبراهيم، كتاب طويل فيه توضيح بالحجة العلمية

المفصلة أن القرآن حادث ومخلوق وليس قديم ويأمره أن يدعو العلماء عليه ويحملهم على ذلك حملاً فإن أبوا ذلك فعليه بقطع أرزاقهم وإيقاف رواتبهم ومنع المنح لهم ففعل ذلك، فدعا العلماء وقالوا جميعاً ما قاله رسول الله وأصحابه فأرسل إسحاق كتابه إلى الخليفة يقول فيه أقوال هؤلاء العلماء فأرسل كتابه وأغلظ فيه القول في حق هؤلاء العلماء وتهددهم وتوعدهم وطلب منهم أن يقدمهم إليه ثانية ويمتحنهم مرة أخرى وإلا فعليه أن يحملهم إليه حملاً مقيدين بالأغلال تحت التهديد بالقتل، ففعل واستدعاهم وكان بينهم الإمام أحمد وتلا عليهم كتاب المأمون وهنا كثيراً من العلماء ترخصوا وتسائلوا وهربوا فراراً من الفتنة وبعضهم ثبت ومنهم الإمام أحمد فأعيد من ترخص إلى ديارهم وقيد من ثبت بالقيود وسجن وأخذ به إلى المأمون المقيم في ترسوس وفي الطريق وعند مشارف المكان السابق خرج خادم من خدمة المأمون (والحق أن الإمام أحمد هنا بقي وحيداً فقد تأول بعض الباقين وتوفي آخر بالطريق ولعله لضعف جسده) هذا الخادم وصل إليه وهو يمسح دمعه ويقول يعز علي يا أبا عبد الله أن المأمون قد سل سيفاً لم يسل قبل مثله قط وأنه يقسم بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن لم تجبه بخلق القرآن ليقتلن بذلك السيف وبينه وبين المأمون ساعات.

يروي الإمام ابن كثير في تاريخه أن الإمام أحمد عندما سمع هذا الكلام جثا على ركبتيه ورمق بطرفه إلى السماء ودعا بهذه الكلمات:

سيدي غر حلمك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤونته.

وبعد قليل جاء نعي المأمون أنه توفي وهكذا لم يكتب للمأمون أن يستجر الإمام أحمد لينزل به بطشه ولم يراه وأعيد الإمام إلى السجن بضعة أشهر ريثما يستقر الوضع لمن بعده كان الأمر للمعتصم ولكن غفر الله للمأمون فحتى بعد أن رأى الموت أبى إلا أن يوصي المأمون بأن يجعل أبي دؤويب من خاصته

والمقربين له وقد فعل المعتصم ذلك لهذا بعض استقرار الأمر استدعى المعتصم الإمام ويروي الإمام بنفسه المحنة وحالته وهو مثقل بالحديد ووصل إلى المعتصم في مجلسه وعلى رأسهم أبو دؤواب الذي كان يضمر حقداً شديداً للإمام فطلب الإمام من الحاضرين أن يناظروه فقال له أحدهم ما تقول في القرآن أقول إنه كلام الله سبحانه وتعالى قال أحمد بن أبي دؤواب أقديم هو أم حادث؟ فقال له الإمام أحمد: ما تقول في علم الله، وأكمل كلامه قائلاً: القرآن من علم الله ومن قال أن علم الله حادث فقد كفر لأن القول بأن علم الله حادث يعني أنه كان جاهلاً ثم علم والقرآن كلام الله وهو علمه سبحانه، فسكت أيضاً فطلب المعتصم أن يناقشوه فقالوا يا أمير المؤمنين إنه لضال مبتدع مضلل قال له المعتصم ارجع عما تقول وأطعه أجعلك من خاصتي تجلس على بساطي ولكن هيهات قال له الإمام أحمد: أريني شيئاً في كتاب الله أعتمد عليه وأقول بما يرضيك، رأى المعتزلة أن المعتصم يفكر في الأمر وهو منطقي وكاد أن يتبين له الحق فقام بن أبي دؤواب وإسحق وقالا: يا أمير المؤمنين لا يقولن أحدهم إن هذا الرجل تغلب على خليفتين اثنين لئن أطلقت سراحه ليقولن كذلك، فاستشاط الرجل غضباً وأمره أن يعود عن هذا فأبى عندئذ أمر جنده أن يسوطوه وأخذوا يضربونه ضرباً مبرحاً بالسياط إلى أن يغمى عليه فينأونه وليس له شعور فينتظرون حتى يستيقظ ويعاودون الكرة وأخيراً أمر به محملاً وأعيد إلى دياره.

ملاحظة: موضوع خلق القرآن يرجع في الأصل إلى رجل ليس من أهل السنة ولا الجماعة ولا المعتزلة بل من الزنادقة وأول من قال هذا الكلام هو جدع بن درهم وقد قتله خالد بن عبد الله التسري يوم عيد الأضحى بعد أن خطب بالناس وقال في آخر خطبته أيها الناس اذهبوا واذبحوا ضحاياكم أما أنا فسأضحي بجدع بن درهم الذي اختلق في المسلمين بدعة ما عرفها أحد قبل وكان موثوقاً بإحدى السواري فنزله إليه فقتله.

ثم حاء بعد ذلك من ينادي بهذه الفكرة (بشر المريسي) وكان في أول الأمر من تلاميذ أبي يوسف فلما علم أنه يبث هذه المقولة في الناس استدعاه وانتهره ونهاه عن هذه المقولة فرفض فطرده من حلقته.

لنشرح هذه البدعة: معنى أن القرآن قديم والحديث طبعاً ليس عن الورق والكتابة والألفاظ التي تولد عن طريق النطق بها من الحبال الصوتية كل هذا حادث ولكن الكلام في هذا عن معاني القرآن المثبتة فيه والذي يسمى الكلام النفسي هذا الكلام هو في الحقيقة علم الله عز وجل هذا العلم وصف كلاماً تنزل في القرآن ولا شك عند جميع المسلمين أن علم الله قديم والمعتزلة يقولون ذلك فهم لم يقولوا إن علم الله حادث وإرادة الله فيه قديمة.

القرآن إما إخبار فهم تابع لصفة العلم وإما أمر ونهي فهما تابعان لصفة الإرادة والمعتزلة وسائر المسلمون يقررون بأن الإرادة والعلم صفتان قديمتان إذاً لماذا يقولون إن القرآن حادث!؟

اختلقوا هذا اختلاقاً من عندهم قالوا ما في القرآن من الإرادة والعلم لا يسمى كلاماً إذا الخلاف لفظي ولكن ما لكم الإمام أحمد الملتزم شكلاً وموضوعاً بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولماذا يلحون على هذا التغيير في الألفاظ سبب ذلك في ما قاله بعض المؤرخين: أن يوحنا الدمشقي كان يقول لبعض تلاميذه وأصحابه إذا تناقشتم مع العرب والمسلمين في عيسى بن مريم كيف تقولون أنه إله وهو مخلوق وحادث قولوا لهم ما تقولون في عيس بن مريم سيقولون إنه كلمة الله فقولوا لهم أليتم تقولون إن كلام الله قديم مغير قديم قبل المعتزلة أرادوا أن يسدوا الباب على النصارى وعلى أمثال يوحنا الدمشقي وقالوا نفر من القول بأن القرآن قديم ونقول بأنه مخلوق وحادث حتى لا يلزمونا بهذه الحجة.

والحق إننا نشك بأن المعتزلة كانوا من السذاجة والجهالة إلى هذه الدرجة لأن أبي طالب يعلم أن عيسى عليه السلام ليس هو عين الكلمة بل هو ثمرة الكلمة إلا فإن الله عز وجل جعل الدنيا كلها وهي كلمة { كن } فهل تقول إن كلمة كن هي الدنيا لسن الحجة السابقة تلزمنا ذلك.

لقد وصف الله سيدنا بأنه كلمة الله لأن بعض الناس تعجبوا من خلقه فقد خرق قانون العادة والأسباب والله عز وجل يذكر الناس بأن الله عندما يريد خلق السموات والأرض فإن ذلك يتم بأبسط مما نتصور وذلك بواسطة توجيه أمر إلى هذه الأشياء فتكن وهذا الأمر هو كن ولكن ليس الكاف والنون بل مدلول { كن } لذلك يمكن ليوحنا أن يخطر بباله هذا الاحتجاج الأحمق ولكن لا يمكن لهؤلاء العلماء الأفذاذ أن يغرقوا في هذه الحجة الخرقاء.

سؤال: هل كان المأمون بهذه الدرجة من البطش والشدة والفظاظة.

الجواب: إن أكثر المؤرخين برؤوا المأمون من ثلاثة أرباع هذه الجريمة التي وقعت للإمام أحمد فهذا العمل إلا في أواخر عهد المأمون قبل أشهر من وفاته ثم إن الكتاب الطويل الذي أرسل إلى إسحاق وفيه أسلوب الحجج والبراهين على أن كتاب الله حادث تقرأه فتجد أسلوبه أسلوب إنسان جالس بين الكتب وليس أسلوب أمير المؤمنين إطلاقاً، لأن من عادته أن يكتب سطرين بلغة الأمر أو النهي وانتهى.

أما التفاصيل فمن مهمة غيره والكتاب الثاني كذلك.

هذا الكلام إنما كتبه أحمد بن أبي دؤاب وليس المأمون ولعله لم يره فقد انتهز فرصة سفر المأمون وكان منذ زمن يلح عليه أن يحمل الناس على هذه الفكرة وكان يأبى ذلك، فلما سافر المأمون وعلم أنه مريض كتب ذلك ولا سيما أنه يتحدث عن أمير المؤمنين بضمير الغائب في كتابه.

مثلاً: يقول لك أمير المؤمنين أرسلهم إلى أمير المؤمنين وإن أمير المؤمنين يحكم بالعدل والقسط وهو ليس كلام رجل عن نفسه والحقيقة أنه لم يتح أن يلتقيا لنعلم ما لذي يحصل ولذلك المؤرخون حللوا هذه القصة أن المأمون أرسل إلى أحمد أن أرسل إلي العلماء حتى نناقشهم ونناظرهم ولعله يقتنع بقولهم ولم يرسل لهم حتى يحكم عليهم بالإعدام، إنما هم أمر فعله أحد من عنده وهو تفسير موضوعي وله أدلة والمهم من هذا كله أن الإمام أحمد واجه المحنة بقوة وكان مثال في العزيمة والثبات على أمر الله عز وجل.

وقد روى البيهقي عن رحمه الله تعالى عن الربيع صاحب الإمام الشافعي يقول: أرسلني الإمام الشافعي من مصر إلى بغداد حاملاً كتاب للإمام أحمد فلما وصلت إليه أعطيته الكتاب فقال ما فيه ألم تقرأه فقال الربيع لم أقرأه، يقول الربيع فلما فض الكتاب وقرأه فاضت عيناه بالبكاء قلت ما الأمر فقال: يقول الشافعي: إنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرؤيا وقال له: أبلغ أحم بن حنبل مني السلام وقل له إنه مدعو إلى فتنة ومحنة سيدعى فيها إلى القول بخلق القرآن فليثبت على الحق فإن الله عز وجل سيرفع له بذلك علم إلى قيام الساعة، قال له الربيع حلاوة البشرى يا سيدي وكان الربيع يعني شيئاً فخلع الإمام أحمد له قميصه الذي يلي جسده وأعطاه إياه ولما عاد وأخبر الشافعي قال له: لن أجفك في القميص ولكن بله بماء ثم أعطينا الماء حتى أتبارك به.

الإمام أحمد والشافعي من السلف الصالح وهم كانوا يتباركون ببعضهم.

مثلاً: عندما دخل الإمام أحمد على المعتصم كان معه شعرات من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يخشى أن تضييع منه فيتفقدها أثناء العذاب.

والذي حصل فيما بعد أن المعتصم حزن وندم على هذا وكان يرسل من يطمئن عليه ويرسل له بعض الأطباء يعالجونه لفترة حتى شفي وبقيت آثار التعذيب ثم مات المعتصم وجاء الواثق وبقي على منهجه ثم جاء المتوكل وهو من

أهل السنة والجماعة فأصلح ما أفسده من قبله (الخلفاء الثلاثة) واسترجع ما أعطى الخلفاء لأحمد بن أبي دوئاب وهب ثروة تقدر بالملايين وأرسل للإمام أحمد ليعتذر منه ويطلب منه المجيء فرفض الإمام ودعاه الثانية والثالثة وأرسل يقول له إنني لا أدعوك أمراً ولكني أريد أن أتبارك بك والتقرب إليك والاستفادة منك عندئذ وجد أن الشرع يأمره بتنفيذ أمر الخليفة فذهب إليه وأنزله ضيفاً في بلدة (سر من رأى) لمدة أيام.(أحمد بن دؤاب كاتب المأمون ومستشاره الخاص ولسان المعتزلة في قصر الخلافة وله دور لا ينسى في توغير صدر الخليفة المأمون تجاه الإمام.

وهنا نجد ملاحظتين:

1- أن الإمام أحمد عفا عن كل من أساء إليه وأبرأ ذمتهم منه وكلما سئل عن ذلك يقول: ماذا تستفيد من أن يتعذب أخوك المؤمن بسببك لقد انتهى الأمر لقد عفا عنهم إلا أصحاب البدع لا لأنهم أسائوا إلى شخصه ولكنهم أسائوا إلى الله.

2- إن بن أبي دوئاب ابتلي في آخر حياته بالفالج الذي أقعده (4 سنوات) وأخذت الأموال التي أعطاها له الخلفاء ولم يبقى معه شيء ومات شر ميتة لقد مات ذليلاً بعد العز/ مهاناً بعد أن وضع نفسه في هالة العلم الكاذب مريضاً بأسوأ الأمراض وهو الفالج الكامل الذي أقعده في فراشه نقول هذا ونحن نسأل الله العافية للناس جميعاً وهي عبرة للناس، فالإنسان الذي يمكر ليضر بالإسلام والذي يصطنع الحق ليجعله وسيلة لظلم أصحاب الحق هؤلاء لا يمكن أن تتجاوزهم النقمة الإلهية والعدالة الإلهية فأنت إن أردت أن تقرأ ترجمة لأحمد بن أبي دوئاب تقرأها مع تراجم العلماء والمألفين والباحثين ولكن ليس المهم عند الله في أي قائمة هو بل الصدق مع الله فيما يعمل، وقد تجد أصناف أرخي لهم العنان فأصحاب النَفَس القصير يتضايقون ويستعجلون ويسألون عن عدالة الله عز وجل ولكن

الذين درسوا سنة الله ورسوله في عباده لا ولا يستعجلون فالله يمهل ولا يهمل وانظر وارغم ما لاقاه الإمام أحمد ما تعجل به صبر حتى أخبر أن الله عز وجل سيجعل له علماً يوم القيامة وهو وإن لم يعرفه إلا تلاميذه فإن صيته ذاع في الآفاق وغدت سمعته أعز عند الناس من سمعة الخلفاء كلهم وصحيح أن ابن أبي دوئاب قد شفي غليله لبضعة ساعات ولكن شتان بين السنوات الأربعة والساعات القليلة فليعتبر كل من تسول له نفسه أمراً من أمثال المستشرقين والمجلات تساندهم عندما رفعوا رجال الاعتزال لمرتبة شاهقة وجعلوهم أبطال التاريخ (ماتسنيون) أستاذ في جامعة السوربون يأخذ ثلاث مرتبات على الشهادة وعلى كيده للمسلمين من دولته وعلى هذا من دول أخرى ولا عجب أن تجد أناساً أسمائهم أحمد ومحمد وعمر وهم ذيول وعبيد لهؤلاء إذا تكلموا عن الإسلام جعلوا أصحاب الاعتزال في هالة من التعظيم والسمو والتجليل ويعتبرون الفكر الاعتزالي فكر تقدمي متحرر، إنهم عبيد يسيرون وراء أسيادهم فهم لا يعرفون السبب ولكن وجدوا أسيادهم يسبحون بحمدهم ففعلوا لأنهم وجدوا أن الفكر الاعتزالي دفن في مهده منذ أيام المتوكل وانتهى وإشراقات الإسلام امتدت وعوامل أخرى وهي الفلسفة التي تفعل فعل الجراثيم والفلسفة اليونانية رأس مال الفكر الاعتزالي فلما انهارت انهار الاعتزال هم هنالك يخططون وأحمد بن أبي دوئاب هنا ينفذ فليعتبر من شاء أن يعتبر.

والحمد لله رب العالمين.